

تولستوى

ولد تولستوى عام ١٨٢٨ ، وهو العام الذى ولد فيه هنريك ايبسن . ومما هو خليق بالذكر أن كلا هذين العبقرين كان يكره الآخر ويحاربه فى أفكاره وآرائه . وليس فى هذا العداوة المتبادل ما يدعو إلى الدهشة ؛ فتولستوى كان مالكا لخاصية الأفكار الحديثة، ويؤيد الجامعة المسيحية وينكر الفرد، فى حين كان هنريك ايبسن يؤيد الفرد وينكر حقوق المجتمع . فهما بذلك يتابعان نزاعاً موروثاً منذ أجيال متعاقبة . ومع ذلك فكلاهما ثورى ؛ فهما ، من هذه الناحية فقط ، متشابهان ، أما فيما عدا ذلك فهما متباينان ؛ فلكل منهما طريقته الخاصة فى إبداء استيائه من العالم تختلف كل الاختلاف عن طريقته الآخر . كما كان لكل منهما مذهب يتشيع له ويدافع عنه ويقول بأنه خير المذاهب . ليس شك فى أن لكل منهما نفوذه وتأثيره . ولما كانا غير متفقين على رأى ، فإن المرء ليميل إلى الاعتقاد بأن تأثير أحدهما يتناقض مع تأثير الآخر ويتعارض معه . والواقع أن الأمر على نقيض ذلك ؛ فتناقض أفكارهما الشخصية ، مع انتشارها وذيوها فى وقت واحد ، قد ضاعف من قوة الفوضى التى كانت سائدة إذ ذاك بين الكتاب والاضطراب المستحوذ على عقولهم .

قلنا إن تولستوى ثورى ، وكان الأجدد أن تقول إنه مصلح . فقد كان عدو الشدة والتعسف ، وكان يأبى أن تقاوم بمثلها ، ويبشر باللين والحلم كما وصفهما الإنجيل . أما إذا كان قد أثار الاضطراب والقلق وأشعل نيران الفتنة ، فارجع ذلك إلى أنه كان يسعى إلى تحسين النظم القائمة وينادى بإصلاح المجتمع الإنسانى . إن المصلحين والثوريين على جانب عظيم من الخطر إذا هم حققوا غايتهم . على أن ضررهم يبدأ فى الظهور قبل أن يدركوا تلك الغاية كما يبدأ تأثيرهم السيء فى الانتشار، فيضيفون إلى الفوضى القائمة فوضى من نوع جديد هي أفظع وأفتك ؛ لأنها تجمع بين القديم والجديد .

كان تولستوى بسيطاً جداً، ولكنه كان — في بساطته المتناهية — مؤثراً. وكانت نفسه من النفوس المعذبة، بل أشد النفوس عذاباً. وقد سعى إلى تخفيف ذلك العذاب وتسكين اضطراب نفسه، بجميع ما أوتيته من نبوغ وذكاء. وكان لا بد من عبقرية فذة لتتمكن من تلك النفس، وتهدى من روعة ما تعانيه من الألم. ومع ذلك لم تفلح تلك العبقرية الفذة. لقد طالما بحث عن الحقيقة ونقب عنها فلم يجدها. على أنه قد وجد اليقين. فتلك الناحية من خلقه هي التي أثارَت الدهشة من حوله. لقد انتزع الإيمان كل أثر للشك من صدر هذا الرجل، فبدا مطمئناً هادئاً وديعاً. فكيف استطاع هذا الجبار أن ينتزع عوامل الشك من صدره حتى أصبح لا يرتاب في شيء على الإطلاق؟ إن لنا عقائدنا واعتقاداتنا، وهي قوية راسخة، ومع ذلك فإنها تترك في نفوسنا بعض الأثر للريبة والتشكك. أما تولستوى فقد كان ينظر إلى جميع المسائل التي تعرض له نظرتين مختلفتين: فينظر إلى بعضها نظرة هامة عاجلة ويعجل في حلها خدمة لنفسه، أو كما كان يقول: خدمة للإنسانية، وينظر إلى بعضها الآخر نظرته إلى الأشياء التافهة الباطلة ولا يهتم بها. كان العلم في نظره شيئاً تافهاً معدوماً. فالأخلاق وحدها كانت في نظره بمثابة الحقيقة الراهنة للحياة، فكان ملماً بجميع خباياها بحيث لم يعد يشعر بشيء من الشك والتردد.

لقد طالما رغب تولستوى في ذلك الإيمان وبحث عنه حتى ظفر به في النهاية! ومع ذلك فقد أجمع من عاشروه على أن عينيه كانتا تشعان ببريق غريب لا يخلو من التلق. وهذا في الواقع ما كان يجعله مؤثراً، وإن كان المذهب الذي نادى به ومات عليه مذهبنا خاطئاً سيئ العاقبة، عظيم الضرر.

كان تولستوى من أسرة عريقة في النسب . . . وعلى الرغم من أنه — وهو في السبعين من عمره — أصبح رسول المساواة المطلقة بين جميع الرجال، وزعيم فلسفة شعبية، فإنه ظل محافظاً على نزعته الأرستقراطية تحت ثوب العمال الذي كان يرتديه، وظلت أنانية الكونت تولستوى الشريف الروسي متجلية وراء مذهب الإصلاح أو الثورة الذي كان ينادى به.

أتم تولستوى دراساته في جامعة قازان القائمة في أعماق روسيا، ثم التحق بالجيش، أسوة بجميع أبناء الشرفاء، برتبة ضابط في المدفعية. وكانت فرقته معسكرة في القوقاز ف قضى عدة سنوات يعيش عيشة الترف والبذخ والحرية

المطلقة ، كما كان يعيش السادة في عهد الرق والاستعباد . لم تكن له في ذلك العهد عقيدة ، فكان لا يؤمن بشيء غير اللهو والمرح . وقد كتب فيما بعد : « لقد عشت في هذا العالم خمسة وخمسين عاماً — وإذا أنا استئثيت سننى طفولتى — فقد عشت فوضوياً عديمياً بكل معانى هذه الكلمة ، لا اشتراكياً ولا ثورياً بالمعنى الذى يطلق على هاتين الكلمتين ، ولكن « نهيليستياً » أى خارجاً » على كل النواميس والشرائع . »

كان مطلق الحرية فى القوقاز ، فأطلق لنفسه العنان ولم يقف بها عند حد ثم اشتعلت نيران حرب القرم ، وهو فى السادسة والعشرين ، فأغرته نفسه الفتية بخوض تلك المغامرة ، وطلب أن يشترك فيها فأجيب إلى طلبه . كان موجوداً فى سباستوبول عند ما ضرب عليها الحصار ؛ فوصف ، فى ثلاث قطع ، صور الحوادث التى شاهدها ، فكانت تلك القطع فاتحة مؤلفاته . وما إن عقد الصلح بين روسيا والدول حتى استقال من منصبه ، وترك الجيش وسافر إلى بطرسبرج وقضى فيها وفى موسكو ثلاث سنوات فى لهو وعريضة . كان مثال « الكونت » الصغير رشيق القامة رقيق الحاشية لبق الحديث ، فكانوا يتوددون إليه ويلتفنون حوله ؛ لما كان يبدو على محياه من ذكاء وفاد ، وما اشتهر عنه من النجاح فى المنتديات والأوساط الراقية بل فى بلاط القيصر . ومرت هذه السنوات وهو يتقلب بين أحضان الطيش واللهو ، ولكنها مع ذلك كانت غزيرة الإنتاج بفضل ما وقف عليه تولستوى من الحقائق المقتنعة المستهتره ، والمظاهر الخلابه الكاذبه . وفى سنة ١٨٦٠ تزوج ، فهدأت نائرتة وانقطع إلى قصره فى مقاطعة تولا .

لقد كتب ، قبل ذلك التاريخ ، « القوزاق » ثم أعقبه بكتابه « طفولة وحدائه وشباب » وهو قصة حياته ، أودعها مع بعض التحريف ، جميع ذكرياته . لقد دلت هذه القصة على ما كان عليه ، وتنبأت بما سوف يصل إليه ؛ فقد كان يتمتع ببعد النظر ، وينعم بموهبة الوصف والتصوير ، وفى ذلك سر عبقريته . كان ينظر إلى الأشياء على حقيقتها ويراها كما يجب أن تكون عليه ، ويلم بجميع نواحيها ودخائلها ، ويصورها تصويراً دقيقاً ، ويصفها وصفاً شاملاً ، فيتناول فى هذا الوصف حياته ومعيشته ، ويتكلم عن حقيقة القرى والأشخاص والنفوس . فأشخاصه القوقازيون قد رأهم وعاشرهم ؛ لأنه قضى ردهاً من الزمن فى بلادهم وبين ظهرانيهم . لقد تخيل شخصية أولنين على شاكلة ، فجعله يعمل الحياة المضطربة

المأجحة التي تمر في المدن الكبيرة ، وجعله ينزح إلى تلك القرية الموحشة في بلاد القوقاز، وهناك يعلق قلبه بحب ماريان ابنة مضيفه . غير أنه لم يفلح — على الرغم من حبه العظيم لها — أن يروض نفسه ويجعلها شبيهة بنفس ماريان ، بسيطة ، ساذجة ، صريحة . سيحاول تولستوى فيما بعد أن يضرب على منوال أولنين ، ويبسّط حياته وقلبه وعقله ؛ لينزل بها إلى مستوى العمال والفلاحين الذين اختلط بهم . تلك كانت رغبته الصادقة ، ولكنه يظل على ما كان عليه من الإبهام والتعقيد بل أكثر مما كان عليه ، لأنه حاول ألا يكون مبهماً أو معقداً .

إن من يقرأ ذكريات حوادثه يتبين أنها لاذعة شديدة الوطأة فيدهش . على أنه لا يلبث أن يراجع نفسه متى علم بأن تولستوى كان ينظر إلى الحقيقة نظرة غريبة قاسية . وهذا ما يتجلى عند قراءة كتابه الذي وصف فيه أباه وصفاً شائناً وأظهره للملأ عريداً سافلاً . أما أن يكون أبوه ذلك السافل العرييد ، وأن يكون قد رآه على تلك الصورة ، وأن تحمله صراحته المدهشة على المجاهرة بذلك ، فهذا دليل قاطع على ما كان عليه هذا الرجل الفذ من صفاء الذهن وقوة الإرادة التي تحمل على الدهشة ، بل تجرح الشعور ما دمنا قد تعودنا أن ننظر إلى الأشياء نظرة خفية مستترة متساهلة إذا ما اتصل الأمر بذيونا . أما تولستوى فكان يعتقد بأنه يكذب لو أنه فعل مثل ذلك . ثم إن الواحد منا يعد نفسه ، كما يعده الناس طرّاً ، عابثاً ، عاقاً ، إذا وصف أباه ولم ينمق الوصف ، في حين أن تولستوى لا يحمل أى حقد لأبيه ولا يعتب عليه أو يلومه ، ولكنه يصفه لنا على علاقته وصفاً دقيقاً . وهو أيضاً يصف لنا نفسه كما يراها . فها هو ذا يصفها لنا إذ كان في السادسة عشرة من عمره ، وقد ضل وفقد إيمانه وبدأ حياته nihilistic ، أو « حياة العدم » كما يعبر عنها بنفسه :

« إن المذهب الفلسفى الذى سحرنى أكثر من جميع المذاهب الفلسفية الأخرى ، هو مذهب التشكك . وقد قادنى ، ردهاً من الزمن ، إلى حالة قريبة من الجنون . فقد كنت أتحيل أنه لا يوجد ، ماعدائى ، شىء أو كائن فى العالم ؛ وأن الأشياء ليست بأشياء ، بل هى مجرد مظاهر كاذبة أتصورها متى كنت فى حاجة إليها ، ثم تتوارى وتتلاشى متى تناسيتها أو كففت عن التفكير فيها . ففى بعض الأحيان كنت ، وأنا تحت تأثير تلك الفكرة الملازمة ، أفقد شعورى إلى حد أن كنت ألتفت فجأة وأنظر إلى الخلف عسى أن يقع نظرى على العدم قائماً حيث

لم أكن موجوداً . كان عقلى الضعيف لا يستطيع التغلغل إلى أعماق المجهول؛ فقد يفقد ، تحت تأثير هذا العمل المرهق ، ما كان عندى من العقائد واحدة فواحدة . وقد دن يجب على أن أحافظ عليها لكي أحتفظ بسعادتي وهناءتي . تلك الجهود الفكرية أكسبتنى شيئاً من حدة الذهن وسرعة الخاطر ، وأضعفت عندى من قوة الإرادة بقدر ما أكسبتنى من الميل إلى التحليل الأخلاقى الذى أصبح عندى بمثابة عادة ، ونزع عن مشاعرى كل طراوة ، وحمل اللبس إلى آرائى .

تلك - لاشك - صفحة غريبة . وهى تكشف لنا عن دخيلة ما انطوت عليه نفس فتى يافع قد اخترع لنفسه - لمجرد استعماله الذاتى أو ليكون سبباً فى تعاسته وشقائه - مذهباً فلسفياً على غرار المذهب المثالى الذى قال به باركلى ولكن فى أقصى حالاته . وهذا المذهب يقول بأن الأشياء على اختلاف أنواعها قائمة على إدراكنا الحسى لها ، ولذلك فإن حقيقتها المستقلة عنا لا بد أن تتلاشى وتختفى ، وأننا نعيش فى عالم من المظاهر نخلقها نحن لأنفسنا . لبس شك فى أن تولستوى - وهو فى السادسة عشرة من عمره - لم يقرأ باركلى ولم يرشده إليه أحد . فالخيلة التى أوجدها لنفسه هى من صنع قواه المدركة الحادة المرهفة .

وهاك مثلاً آخر من الهذيان الذى قاده إليه حساسيته ويتجلى فى كتاباته :

« عند ما أتذكر عهد طفولتى والحالة العقلية التى كنت أتمتع بها آنئذ ، أدرك معنى الجرائم الفظيعة الوحشية التى ترتكب بغير ما غاية وبغير ما رغبة فى الإيذاء ، بل بدافع الفضول واللاشعور ، أو بدافع الحاجة إلى ارتكاب فعلة ما . ثم إنه تمر بالمرء أحياناً فترات من الزمن يرى فيها المستقبل فى ألوان قائمة وأوضاع متباينة ، حتى ليخشى العقل أن يقف حياها أو يتناولها بالتفكير فيغمض عينيه لكيلا ينظر إلى هذا المستقبل ، ويقف فعل العقل والتفكير ، ويحاول أن يقنع نفسه بأنه لن يوجد مستقبل ولم يوجد ماض . فى تلك اللحظة التى يقف عندها الفكر عن مراقبة كل وازع من الإرادة ، وتصبح الغرائز المادية عماد الحياة ورائدها ، فى تلك اللحظة أدرك ما يرتكبه الطفل القليل الاختبار بلا تردد ، وأفهم لماذا يشعل النار ويدكى ضرامها بأنفاسه ، وينظر إليها بابتسامة ساذجة فضولية وهى تلتهم البيت الذى يرقد فيه إخوته وأبويه وكل الذين يجهم حياً عمقاً . فى تلك اللحظة التى تتوارى فيها الفكرة خلف حجب اللهو أو

النسيان والعدم ، يقف القروى اليبافع إلى جانب الدكة التى يضطجع عليها أبوه الشيخ وهو ينظر إلى شفرة المعول التى تلمع فى يديه ، وخبأة ترتفع تلك اليد بما تحمل فى قبضتها وتهوى ، وتتحول نظرة الفتى من المعول إلى الدم الذى يتفجر من الرأس المحطم . إن المرء ليجد ، إذ يكون فى مثل تلك الحالة ، نوعاً من اللذة فى الانحناء على حافة الهاوية السحيقة وترديد هذه الفكرة : « لو أننى أنحدر إلى أسفل ورأسى إلى الأمام ! » أو أن يضع فوهة مسدس أو غدارة محشوة على جبينه ويهذى قائلاً : « لو أننى أضغط على الزناد ! » أو أن ينظر إلى شخص عظيم الشأن محفوفاً بمهابة الجميع ويقول لنفسه : « لو أننى أتقدم إليه وأجره من أنفه وأقول له : « إيه ! أيها الرجل الطيب هلا أتيت معى ! » . يقيناً إنه لجنون وإن كان الوصف جذاباً . . . »

هذا ما ورد فى كتاب « القصة الروسية » للكونت دى ثوجويه . وهو يقدر أن ذلك يعد نتيجة لإحساس روسى بحت أو « نوبة » شائعة فى روسيا باسم « أوتشايانييه » ومعناها « اليأس » . وإن كان من النوع الذى ينطوى على التعصب والوحشية والسخف المتعمد المقصود ، كما أنه نوع من السخف المشوب بالكآبة والحزن والاستسلام الذى يأباه تولستوى ؛ لأنه استسلام الذات والنفس والحياة لعوامل قوية مستترة خطيرة مغرية رائدها الخطر . أو بعبارة أخرى هو نوع من السحر الخفيف المسف وإن كان فى ظاهره بسيطاً ساذجاً . . . ثم يستطرد ثوجويه حديثه بقوله : « مسكينة روسيا ! تلك هى روحك وهى روح طائر مائى يخلق فوق العاصفة ويرفرف فوق الهاوية ! »

هذا ما كتبه ثوجويه عام ١٨٨٦ . وإن تاريخ روسيا الحديث ، تاريخها عقب ثورتها الأخيرة ، كفىل بأن يعزز هذا التشخيص الدقيق لذلك الداء الوبيل . لقد كان تولستوى ، مع ما كان عليه من عبقرية فذة ، روسياً بحتاً وروسياً كبيراً . كان روسياً بكل قطرة من دمه ، فكان لا يخلو من أية حاسة أو أى شعور أو عقيدة أو نزعة أو سخافة روسية . وهذا ما جعله يصف روح بلاده وروحه ، ويعبر عن حقيقتها تعبيراً صحيحاً دقيقاً . إنه يصورها تصويراً حسيماً يحمل على الدهشة والعجب . على أن هذا التصوير يخفف عناء البحث والتفكير على قارئه ويجعله يفهم خباياها ويشعر بها . إنها روح مستسلمة للأحلام ، فلا تجد فرقاً بيننا وبينها وبين الحلم الذى تسبح فيه أو الحقيقة التى تلمسها . ومع ذلك

فتلك الروح تفكر وتعقل ، ولكنها تناقش وتقيم البيئات والحجج للتدليل على صحة خيالها أو على الحقيقة . هذه الروح تتمتع بكثير من الفضائل . وبين تلك الفضائل فضيلة ممتازة هي الصبر عند الشدائد . إنها أقدر من سواها على تحمل الألم والجلد . ويظهر أن استسلامها لا يكلفها شيئاً ، وإن كان في الواقع يحملها أشياء ؛ لأنها لا تستطيع كتمان ما يعترها من ثورات خائفة يتجلى فيها حقد هائم ينفجر . إنها لا تنظر إلى الزمن والفضاء كما ننظر إليهما ؛ فليست لها فكرة ثابتة عنهما ؛ لأنها تفضل وتتيه في دياجير الزمن والفضاء . إنها روح ضالة شريفة معذبة تستسلم فجأة لتزعزعاتها ونزعاعاتها هما كانت مسفة أو خطيرة . إنها روح مريضة . إن القصص الروسية التي لقيت رواجاً عظيماً ، وبصفة خاصة قصة تولستوى قد كشفت عن صحة ذلك . تلك كانت روح روسيا قبيل الحرب العالمية الأولى . وهي روح مترددة غير مستقرة . فقد خانت كل من وثقوا بها ، كما خانت نفسها بسذاجة وجهل ، وقد كان ذلك أشد خطراً عليها من أعدائها .

إن « حرب وسلم » و « أنكارنين » أشهر مؤلفات تولستوى وأبدعها . ولكنه عند ما تحول من قصصى إلى رسول مبشر ، أصبح يحتقر عمله كقصصى ، وبصفة خاصة هذين المؤلفين . لاشك في أنه أخطأ في تحقير هاتين الدرتين الخالدتين ، فقل أن يوجد في الأدب ما يضارعهما ، وقل أن يوجد بين الأدباء من وضع في مؤلفاته من الحقائق ، وضمنها من الوقائع ، وكشف عن خفايا النفوس وأضائها مثله . وقل أن يوجد من تناول الحديث عن خبايا تلك الآلة المتحركة ، ووصفها دورانها السريع وحركاتها الظاهرة والخفية وذاتيتها ونزعتها الخاصة وخصائصها كما تناولها تولستوى . فكأنه كان يفكك أجزاء تلك الآلة لكي تقف على تركيبها وأسرارها .

إن كتاب « حرب وسلم » هو وصف للحياة الروسية في بدء الجيل الماضى خلال حروب نابليون . إن تولستوى يبعث هذا الماضى من قبره . فأحد الأشخاص هو إمبراطور فرنسا ، والآخر هو قيصر روسيا . إنهما ولا شك من العظماء وهما زعيان . على أن تولستوى لا ينعم عليهما بهذا اللقب ، فلا يوجد عنده زعيم . إن تولستوى عبقرى ، وهو لذلك لا يكتفى بأن يرى ، بين الحوادث البشرية ، السبب الظاهر الجلى ، على الرغم من أن هذا السبب قد يكون أحياناً أوضح

من الحقيقة . إنه يؤمن بالأسباب الصغيرة المتعددة فيبحث عنها بين الجماهير والجموع؛ ولذلك رأى أن الذين رأسوا الحركة وتزعموها هم من العامة لأهمها . يوجد في « حرب وسلم » شخصية بذت الأباطرة وسمت عليهم ، وتلك الشخصية هي الجموع والجماهير وعامة الشعب . وهذا ما يزيد في ثروة تلك القصة ويرفع من مكاتبتها . وهذا ما يجعل التجانس كبيراً بين هذا الكتاب وبين الحقيقة الحية . في وسط تلك الجموع اختار تولستوى أشخاصاً يمثلون ، أو يمثل كل منهم إحدى خصائصها . فكلما ازدادت مظاهر هذه الجموع ازدادت الوحدات التي تؤلفها . وأحد هؤلاء الأشخاص الذين تعرض لهم تولستوى بكل دقة وإخلاص هو الكونت بطرس بزوكوف ، وهو روسى بمعنى الكلمة ، وهو ذكى عالم وديع سهل الانقياد متحفز للشهوة سريع الخاطر رقيق الحاشية جدير بكل تبذل وجنون ، ميال إلى الكسل كما أنه ميال إلى العمل المتواصل المرهق . وهو إلى هذا كله شريف لا يتقهقر أمام ارتكاب تقيصة أو جرم . كانت النار تلتهم موسكو دون أن يعلم أحد من أشعل ضرامها ، وكان بطرس بزوكوف في قصره ، فغادره في زى قروى واختلط بجموع الشعب . كان يحمل تحت معطفه خنجرًا حاداً ؛ ربما كان يقصد قتل نابليون . وهو إن قتله فلكى ينتقم لروسيا . وهو يعلم ما كان ينتظره من وراء ذلك . على أنه لو قتل نابليون فغايبته من ذلك التضحية . ومجمل القول أن ما كان ينتظره لم يثنه عن عزمه بل زاده حمية . إن قتل نابليون ، لو تم ، كان سبباً في موته ، هو نفسه ، وهذا ما كان يبتغيه ، وهذا ما لم يفعله . إن البون شاسع بين ما يريده بزوكوف وبين ما كان يجب أن يقدم عليه . فبين إرادته وتنفيذ ما يريده يجثم كل ما في نفسه من تشكك وتردد . وقع بزوكوف أسيراً بيد الفرنسيين ، فكانوا يعاملونه بمنتهى القسوة والوحشية . لشد ما كان يتألم ! ولكنه يلتقى وهو في الأسر بقروى يدعى أفلاطون كراتايف . وهو رجل معدم ونكرة بالنسبة له . وهو إلى جانب هذا عار عن كل فكرة بعيد عن كل تفكير ، إذا نزع حذاءه فاحت من قدميه رائحة كريهة حادة . وكان يجلس القرفصاء ويضم يديه إلى ركبتيه ويظل شاخصاً إلى بزوكوف . ماذا كان يريد من بزوكوف ؟ لاشئ على الإطلاق ، إلا أنه كان ينظر إليه . وبزوكوف من جانبه كان ينظر إلى كراتايف . فإذا كان يريد منه ؟ هل يريد درساً أم يريد نصيحة وإرشاداً ؟ ولكن أى درس يمكن أن يريده بزوكوف العالم من هذا

الغبي الجاهل؟ . . . هنا تتجلى الفلسفة التي سيعتقها تولستوى ، وتصبح رائده وموضوع رسالته . إن بزوكوف قد اكتشف الحقيقة في عقلية أفلاطون كراتايف البسيطة الساذجة . . . وأية حقيقة ياترى؟ . . . طهر الكائن وزهده واستسلامه للقدر .

وتبادل بطرس بزوكوف بضع عبارات مع أفلاطون كراتايف . إلا أن ما قاله أفلاطون كراتايف لا يعدو حد السخف . . . بعض ألفاظ سقيمة عقب عليها بابتسامة وشرحها بما يفيد عجزه عن عمل أى شىء ، وأن الحال يجب أن تكون كما هى عليه ، وأن خير ما يعمل هو قبول ما لا يمكن رفضه ويتعذر تبديله . يجب الاستسلام لذلك بغير مقاومة . وأخذ التعب من أفلاطون كراتايف حتى لم يعد يقوى على السير ، فقتله الجند برصاصهم دون أن يبدي أية مقاومة أو تأخذه هزة اضطراب أو غضب . لقد مات وهو يتألم . واتخذ بطرس بزوكوف من كراتايف رائدًا له . . . هذا مؤثر للغاية وهو سخيف أيضاً . وفي مثل ذلك دعاية إلى هدم التفكير وانعدام الفكرة . فهل يمكن أن تؤدي جهود الفكرة البشرية إلى مثل ذلك الاتحار للفكرة؟ . . . الواقع أن ما فعله بزوكوف سيفعله تولستوى .

أما القصة الثانية «أنا كارنين» فكانتها لا تقل عن مكانة «حرب وسلم» . فيها واقعة غرامية تنمو وتتطور بتطور الحوادث المزعجة التي تتخللها ، وفيها خاتمة . أما الفن فيها فيتساوى مع سابقها كما تتساوى قوة الابتكار والتنبؤ التي يظهرها المؤلف في معرفة النفوس وحيرتها واضطرابها . ويوجد في «أنا كارنين» كما في «حرب وسلم» شخص اودعه تولستوى بعض أفكاره الهامة . وهو في هذه القصة بمنزلة بزوكوف في القصة الأولى . هذا الشخص يدعى : ليثين .

قسطنطين ليثين رجل ميل ، يعيش في الريف طبقاً لعادات خاصة . وهو شريف النفس ، طيب السريرة ، كان يود أن يحسن حالة القرويين ، ويخفف عنهم وطأة الحياة ، ويحطم أغلال الاستعباد التي تقيدهم متأثراً بالأفكار الحرة التي كانت تشتعل في نفوس بعض الروسيين . على أن تعصبه لمذهب الحرية المدنية والدينية لم يكسبه إلا المتاعب واليأس . مات له أخ كان يحبه ويقضى حياته بصحبته ، فأثر هذا الحادث في نفسه تأثيراً كبيراً . وإلى جانب ذلك كان يقرأ شونهاور ، فلم يرجح من تلك القراءة شيئاً ، وأظلمت الدنيا في وجهه ، وتمسكت

الكآبة نفسه، وتحوّلت تلك الكآبة إلى نوع من الفلسفة والاستسلام . وصار يعتقد أنه ليس لإذرة حقيرة ضئيلة تكونت في اللانهاى ، وسارت مع الوقت في هذا الفضاء وتألّبت مع المادة ولا بد أن تنفجر وتتلاشى كالفقايع التى تطفو على سطح الماء . « هذه الذرة هى أنا » . أزعجه ذلك القياس وتأثر منه كثيراً . ولما لم يكن الإقياساً ، فإنه لم يلبث أن هجره ، وإذ ذاك ضل كل الضلال ولم يعد يعرف شيئاً إطلاقاً . وخاطب نفسه : « ما دمت لا أعلم من أنا، ولماذا أنا هنا فى هذه الحياة ، فإن الحياة تصبح أمراً مستحيلاً . ولما كان المستحيل أن أدرك ذلك فلا شك فى أن الحياة مستحيلة . »

من السهل أن يقول المرء إن الحياة مستحيلة وهو مع ذلك يحيا . فلو أنه كان يتمتع بقليل من الإدراك العقلى لوجب عليه أن يقول : « إننى أحيأ وإذن فالحياة ليست مستحيلة . » ولكن هذا الإدراك العقلى لا يوجد . وهو عند ليثين أقل منه عند أى شخص غيره . ثم إنه يقول لمن يريد أن يستمع إليه ويقول كذلك لنفسه : « لا يجب أن يحيا المرء لنفسه ، ويجب أن يحيا لله . » ولما كان مظهره وهو يقول ذلك يدل على الثقة والطمأنينة والهناءة ، فهينته هذه تدل على أنه على حق . لقد سرّ ليثين لتلك الحقيقة ، وانضم إلى فكرة فيدور وخاطب نفسه بقوله : « كل الشر ناتج عن سخف العقل ووضاعته ! »

لقد استعاض هذا الرجل بفيدور عن جميع الفلاسفة وشوڤنهاور . لقد قرب الكونت فوجويه فى كتابه « القصة الروسية » بين ارتداد بزوكوف وارتداد ليثين إلى الإيمان . وأضاف تلك الملاحظة : « فى ذات يوم التقى تولستوى وسوتائف ، كما التقى بزوكوف وكراتيف ، وكما التقى ليثين وفيدور الرجل الطيب » .

كان سوتائف قرويا من تشر . اخترع فلسفة أو ديناً نادى ، به وأخذ ينشره فى نزواته وأحاديثه . بدأ فيه بالإنجيل ، فأخذ يفسره على طريقته بإخلاص وبغير تعقل . واستخلص منه مذهباً يدعو إلى الإخاء وتنظيم الحياة المشتركة والشيوعية . وهكذا كما رأينا بزوكوف وليثين يلتحقان بمدرسة كراتيف وفيدور الرجل الطيب ، نرى أن « مؤلف حرب وسلم » و « أنا كارنين » وفيما بعد مؤلف « اعترافى » و « دينى » ، و « ماذا يجب فعله ؟ » يلتحق بمدرسة سوتائف الرجل المتعصب .

وتغيرت جميع أساليب حياته .
 فى «دينى» يقص أنه بينما كان فى موسكو مر بباب بوروفيتزكى ، فوقع نظره على شيخ متسول مريض مقطوع الساق ومعصوب الرأس ، وتأهب تولستوى ليحسن إليه ببعض النقود ، إلا أن المتسول وقف فجأة بقدر ما تسمح له حالته ، واندفع هاربا مذعوراً؛ فقد رأى جندياً شاباً فى أحسن الهندام جميل الوجه مقبلاً عليه ومهدداً، وطارده الجندى وهو يقذفه باللعنات؛ فقد كان من المحظور على المتسولين الجلوس بباب المنزل الذى يقيم فيه بوروفيتزكى . وانتظر تولستوى حتى دانه الجندى وسأله :
 — هل تعرف القراءة ؟
 — يقيناً !
 — وهل قرأت الإنجيل ؟
 — بالطبع !
 — وقرأت فيه تلك العبارة : « إن من يطعم جائعاً وما يتبعها . . . »
 وكان الجندى يذكر تلك العبارة ، فبدا عليه الاضطراب وأخذ يسائل نفسه هل هو أخطأ مع أنه يقوم بواجبه العسكرى . وأخذ يبحث عن جواب يلقيه على نفسه وعلى تولستوى الذى يخاطبه . . . وفى النهاية قال لمحدثه :
 — وأنت إذا كنت تعرف القراءة فهل قرأت اللائحة العسكرية ؟
 واضطر تولستوى إلى الاعتراف بأنه لم يقرأها . فاستطرد الجندى :
 — إذن اسكت !
 وابتعد وهو يهز رأسه ، ومشى وهو يَحْتال عجباً .
 فلماذا كان يحاول أن يزعم أفكار الجندى ، ويحول بينه وبين القيام بواجبه ؟ لم يكن يتعمد ذلك ولم يفكر إلا فى هدايته إلى أرجح واجباته وأسمائها . ولكن هذا الجندى كان يرى أن واجبه فى تلك اللحظة هو فى اتباع الأوامر . على أنه ليس من المعقول إلغاء لوائح البوليس والقوانين ؛ لأن الإنجيل يأمر بالإحسان . إن تولستوى يغالى فى تعاليمه ، والجندى كان على حق إذ يلاحظ هذه المغالاة ويرفض أن يحطم شعوره بواجبه مقابل مغالاته فى تطبيق سنة الإنجيل . كان تولستوى يحب الحقيقة إلى حد الشغف والتدله . كان يحبها لأنه طالما رغب فيها وتمناها ، وطالما تألم بسببها قبل إدراكها . هذا هو التعليل الوحيد

الذى كان يقدمه هذا الرجل العظيم ويحيب به على كل من كان يعارضه فى رأيه . وهو تعليل عجيب . إن السبب فى كل ما وصل إليه ناشئ عن حساسية مرهفة كانت تلازمه منذ طفولته ، ولم تضعف الأيام ولا السن من شوكتها بل زادت فى حدتها . إنه كان لا بد له أن يكون رقيق الشعور مرهف الإحساس متيقظا الذهن إلى حد يؤثر فيه أدنى اعتراض لإدراكه العقلى ، لى يتمكن من وصف شخصياته فى مختلف الأزمنة وتصوير نفسياتهم وشعورهم . ولكن مثل هذه الحساسية كانت عذاباً مستمراً ؛ فقد كانت تحول كل فكرة من أفكاره إلى قلق واضطراب . إن مذهب التشكك الذى طالما ارتاح إليه غيره ، كان عند تولستوى مصدراً لأفزع الأحزان والآلام . والحقيقة التى كانت فى نظر غيره موضع الفضول كانت محط أنظاره وسعيه يبحث عنها كما يبحث الغريق عن جبل الإيقاد ، ويحاول الوصول إليها عسى أن يدرك بوساطتها شاطئ الخلاص ، حتى إذا أدركها قبض عليها بيديه القويتين ، ولن يقوى إنسان — أيا كان — على أن يجعله يتخلى عنها أو ينكرها .

وليس أدل على تمسكه بمذهبه وارتياحه إليه من قوله يخاطب بعض أصدقائه : « إذا أنت أدخلت قطعة من القش بين آلات ساعة وقفت جميع أجزائها وكفت عن الحركة . ولكنك إذا انتزعتها عادت جميع الأجزاء إلى سيرها الطبيعى ، وهذا دليل قاطع على أن هناك ضرراً من وجود قطعة القش بداخل الآلات . الأمر كذلك إذا أنت أدخلت فى حياتك مذهباً خاطئاً . . . تسألنى لماذا أومن بأن مذهب المسيح هو المذهب الصحيح ، وتطالبنى بالدليل على ما يحملنى على الاعتقاد بهذا المذهب ؟ . . . إذن هاك الدليل : عندما تدخل الفكرة المسيحية الحقيقية إلى أعماق النفوس ، فإن الحياة بأسرها تنتظم وتصبح جلية هينة منسجمة ، ويتلاشى التردد وتزول الاعتراضات . . . إننى أعتقد بمذهب المسيح لأننى لا أعرف مذهباً آخر يستطيع أن يهب مقداراً من السعادة يضارع ما يهبه هذا المذهب إلى مثل هذا العدد العظيم من الناس إن لم يكن إلى الناس طراً . لا نزاع فى هذا اليقين ! إن السفسطائين يحاولون عبثاً طمس معالم هذه الحقيقة . والكتاب أمثال نيتشه الذين يتبجحون فى تأييد نظرياتهم الفردية ، ويدعون بأن العطف والشفقة ضرب من الضعف ، لا يمكن أن يكونوا مخلصين . إن مذهبهم كاذب . والمذهب المعارض لمذهبهم واضح تمام الوضوح لمن يبصرون . »

لقد ذهب بعض الكتّاب — ومن بينهم الكونت دى ثوجويه — إلى القول بأن تولستوى كان متصوفاً. على أن الذى يتبين من كتاباته وأقواله أنه لا يدين بهذا المذهب، وأنه « واقعى » أو — إذا شئت — اختبارى. فقد قام تولستوى بكثير من الاختبارات فى الحياة، لم يفلح بعضها فأثار حزنه، وأفلحت الأخيرة ونجحت نجاحاً باهراً. أما فلسفته فليست — كما قيل — عوداً على المسيحية فى أول عهدها، ولكنها تفسير للمسيحية إنها تؤمن وتدعى لنفسها الحقيقة، وإن كانت بعيدة كل البعد عن المسيحية التى تقول بها الكنيسة لروسية بل الكنائس أجمع. ويكفى للتدليل على ذلك أن نقرأ النبذة الآتية: « كل شئ كان يعزلى الحقيقة بالمعنى الذى وجدته فى مذهب المسيح، ولكنى مكثت طويلاً دون أن أفهم السبب الذى جعلنى أكتشف شريعة المسيح كما لو كنت أكتشف شيئاً جديد العهد، وإن كان قد مرّ على تلك الشريعة ثمانية عشر قرناً توافر خلالها آلاف الناس ووقفوا حياتهم على دراسة هذا الإيمان... »

تلك أنانية مدهشة مع ما فيها من تواضع غريب. على أن ما يبدو على تولستوى من القلق ليس مستغرباً. لقد اكتشف، أو اخترع المسيحية كما لو كانوا يكتشفون الآن أمريكا فيجدون أنها ليست كما كانوا يتوهمونها أو كما كانت عليه فى عهد كولمبوس! أما كيف صنع تولستوى مسيحته فواضح من حديثه لبعض أصدقائه: « عندما أقرأ عظة الجبل أتبين أن الحقيقة كما يجب أن تكون تتجلى فى عباراتها. فكل ما جاء فى الإنجيل مطابقاً لما ورد فى عظة الجبل، فأنا أسلم به. أما الباقي فأنا أهمله أو أرفضه... ». وهكذا فإن العظة التى ألقاها المسيح وهو على الجبل ليس فيها ذكر ألوهيته؛ ولذلك كان ينكر تولستوى ألوهية المسيح. هذا تعليل غريب. وإذا قيل لتولستوى إن هذه العظة أخلاقية ولا معنى إذن لأن تتضمن تعريزاً لألوهية المسيح، فإنه كان يتبرم لهذا الاعتراض ولا يجيب عليه؛ إذ كان شديد التمسك بعقيدته ولا يقبل أى اعتراض عليها. ليس شك أن التفسير التولستوى لعظة الجبل لا يخلو من نزعة صيدانية. لقد فصل تولستوى تلك العظة عن الإنجيل، وجعل منها إنجيلاً له يفسره كيفما شاء، ويريد أن يجعل منه برنامجاً لحياة من نوع جديد كان يطالب بتحقيقه. يوجد نوعان من الحياة البشرية أو بعبارة أصح من الحياة فى المجتمع

— لأن الحياة الفردية بمعنى الكلمة لم توجد — وهذان النوعان هما الحياة الريفية والحياة العملية . فإذا أسف فيلسوف لاندفاع الناس في معترك الحياة العملية فليس في ذلك ما يؤاخذ عليه . وإذا أسف على الحياة الريفية فيمكن أن يقال عنه بأنه شاعر . وإذا كان يتوقع عودة الإنسانية إلى الحياة الريفية فيصح أن يقال عنه إنه حالم . أما إذا جاء هذا الحالم إلى ميدان الحياة العملية وأراد أن يفرض على من فيها العودة إلى الحياة الريفية ، فأقل ما يقال عنه إنه مخادع . فإذا خدع تولستوى نفسه فله عذره ، وإن كان لا يخلو من الخطر ؛ لأن تأثيره كان عظيماً . لقد أنكر تولستوى كل وطن باسم الاشتراكية البشرية . لقد كان للروس قبيل الحرب العالمية الأولى كثير من المعلمين غير تولستوى . وقد ضلوا بهم حتى لقد انسحبوا من الحرب قبل نهايتها ؛ وما ذلك إلا عملاً بتلك التعاليم الخطيرة .

إن مبدأ عدم مقاومة الشر هو أحد المبادئ الرئيسية التي يتضمنها برنامج تولستوى . وقد تذرع الروس بهذا المبدأ ليشتروا وهنهم وخورهم والسحابة من الحرب ، لم يقاوموا الشر الذي كانت تمثله ألمانيا في ذلك العهد ، وكذلك لم يقاوموا الشر الذي استفحل في بلادهم ، فظلت خلال سنوات عدة مسرحاً للفوضى وإراقة الدماء . وإذا كانت روسيا قد استعادت الآن مكاتبتها فلأنها تخلت عن هذه التعاليم بعد أن تبين لها خطؤها ، ووقفت في وجه الشر وقاومته .

كان تولستوى يأبى أن ينظر إلى النتائج . وكثيرون من كتاب الروس من هم على شاكلة . لقد وضع مبادئ مذهب ، وهو يحافظ عليه مهما كانت نتائجه . يقيناً أنه كان لا يرغب في أن تصبح روسيا — في بعض عهودها — مسرحاً للشر ؛ فذهبه ، كما فكر فيه ، لا يرمى إلى تلك الغاية ولا يذهب إلى هذا الحد ، على أنه كان سبباً لتلك النتيجة ، وهذا ما يستحق اللوم عليه .

كان تولستوى فذاً في عبقريته ، فذاً في تفكيره وبسط آرائه ، فذاً في معيشته . فقد كان يرتدى لباساً قبيلاً إنه شبيه بلباس المويجيك أو القرويين وإن كان في الواقع لباس العمال . كان هذا اللباس مؤلفاً من معطف أسود معقود عند المعصم ، وملتصق بالجسم عند الخصر بزئار من الجلد ، ومفتوح عند العنق تحت لحيته البيضاء المسترسلة على صدره . كان هذا اللباس ملائماً ومناسباً

وأكبر الظن أنه اختاره لنفسه مرضاة لراحته، أو تشبها بتلك الشخصية التي نادى بها تطبيقاً لمذهبه. لقد كان هذا المذهب على شيء من الشدة؛ فهو يفرض نوعاً من الحياة في منتهى التقشف، ومثيراً للضيق والألم. على أن الكونتس تولستوى كانت إلى جانبه ساهرة على راحته، تستنبط الحيل للتوفيق - بقدر الإمكان - بين ما يفرضه هذا المذهب وبين ما تتطلبه الحياة العادية. حدث أن ألم به مرض ثم أبل منه، فأشار الطبيب بأن يعطى قليلاً من النبيذ مع الطعام، ليقاوم الضعف الذي خلفه المرض. وكان مذهبه يحرم شرب النبيذ. فوجدت الكونتس حلاً مناسباً لإرضاء الطرفين، إذ فكرت في أن تستعوض عن النبيذ بعصير العنب المختمر. هذا العصير - وإن اختلف الاسم - ليس في الواقع إلا نبيذاً، ولكنه من نوع محلل لا لشيء، إلا لأنه لا يحمل اسم النبيذ. وحدث مرة ثانية أن فكر تولستوى ألا يتقاضى من ناشري مؤلفاته جعلاً؛ لأن مذهبه يدعو إلى ذلك، ولأن الفن ليس مهنة يمنح عنها أجراً. والمرء لا يكتب إلا لينشر فكرته ويقدمها هبة لإخوانه؛ وهذا ما يأمر به الإحسان وتدعو إليه الصداقة. وكشف تولستوى عن فكرته لزوجته، فها لها ما سمعت واستاءت، ولكنها تمكنت من معالجة الأمر وقالت له: «صحيح. هذا جميل ولكن فيما يتعلق بمؤلفاتك الحديثة؛ فهي ملائمة لفكرتك النبيلة التي تقوم عليها ماديء رسالتك، وأنا أفرك عليها يا لبيب نيقولايتش، أما قصصك التي نبذتها عنك وأنكرتها أمثال «حرب وسلم» و«أنا كارين»؛ فهي مؤلفات شعبية وضيفة لا تصلح للوعظ والإرشاد ولا هداية أحد، ولذلك فهي تختلف كل الاختلاف عن غيرها.» واستقر الرأي على ألا يتقاضى تولستوى كوبيكاً واحداً من بيع مؤلفاته الأخلاقية - وتلك كانت لا تباع بطبيعتها - ويستمر في تحصيل حقوق التأليف عن قصصه المنبوذة المحترقة - إذ أنه كان ينبذها ويحترقها - وتلك كانت رائجة وتباع بكثرة مدهشة. إنه اتفاق مدهش عظيم ومضحك في ظاهره. ولكن هل هو مضحك في ذاته؟ إنه يوضح بجلاء أنه يصعب على الإنسان أن يعيش كما يريد، وكما يقرر أن يعيش طبقاً للفكرة التي يكونها عن الجمال...

إن مثل هذا العيش كثيب لا يسر. ومما يزيد في كآبته أن تولستوى نفسه كان يتألم منه مُرّة الألم. وخير دليل على ذلك هو موته. كان قد تجاوز

الثمانين، وكان يعيش في مزرعته في ياسنايا بوليانا محاطاً بذويه وعشيرته . وفي ذات يوم غادرهم خلصة . . . إلى أين عساه يذهب ؟ إلى مكان قصي مجهول ينشد فيه حرите . . . أية حرية ؟ . . . حرية العيش طبقاً لعقيدته وإيمانه . كان قد اعترى أن يتعد عن حياة تُنظم وتُعد له بما يناقض مذهبه ويتعارض معه . وهكذا أصبح تولستوى العظيم الخالد مشرداً في الطرقات ، يمشى في العراء بعيداً ، ويفقد ما بقي له من القوة شيئاً فشيئاً . ثم يفاجئه البرد فيقضى نحوه في العراء . . . مسكين ذلك الشيخ الهرم . . . لقد هجر كل شيء وترك كل شيء ؛ ليكون في لحظة موته شيخاً مسكيناً . . .

سليم سنده

في وقتها كان تولستوى في مزرعته في ياسنايا بوليانا محاطاً بذويه وعشيرته . وفي ذات يوم غادرهم خلصة . . . إلى أين عساه يذهب ؟ إلى مكان قصي مجهول ينشد فيه حرته . . . أية حرية ؟ . . . حرية العيش طبقاً لعقيدته وإيمانه . كان قد اعترى أن يتعد عن حياة تُنظم وتُعد له بما يناقض مذهبه ويتعارض معه . وهكذا أصبح تولستوى العظيم الخالد مشرداً في الطرقات ، يمشى في العراء بعيداً ، ويفقد ما بقي له من القوة شيئاً فشيئاً . ثم يفاجئه البرد فيقضى نحوه في العراء . . . مسكين ذلك الشيخ الهرم . . . لقد هجر كل شيء وترك كل شيء ؛ ليكون في لحظة موته شيخاً مسكيناً . . .